

«مشيناها خطي»

إيمان يحيى



30 يونيو 2008

ترك لنا المؤرخ العربي الراحل "رؤوف عباس" الكثير من الكتب والمؤلفات والدراسات لكن أكثر أعماله إثارة وشعبية، كان سيرته الذاتية، التي صدرت منذ أربعة أعوام تحت عنوان "مشيناها خطي". أصدرت دار الهلال المصرية العريقة خمسة طبعات منها، تجاوزت نسختها الخمسة والعشرين ألفاً. وصدرت طبعة عربية لها في دمشق من دار الطليعة الجديدة. وفي الأسبوع الحالي تصدر طبعة جديدة من مذكرات رؤوف عباس في القاهرة عن الدار المصرية اللبنانية. يا لها من مصادفة وقدر عجيب أن تصدر الطبعة السابعة من سيرته الذاتية في الأسبوع نفسه الذي وافته المنية فيه.

ولعلها من أصدق السير الذاتية التي قرأها قراء العربية. لا يحكي المؤرخ "رؤوف عباس" قصة حياته، بل قصة حياة مجتمع في ثلاث مراحل للتطور السياسي. يتعرض لطفولته البانسة والفقيرة أيام الملكية في مصر، وإلى شبابه في الستينات في عصر "عبدالنصر" والثورة، ثم عن أيام "السادات" والثورة المضادة. قصة كفاح عظيمة، نرى من خلالها ابن عامل "السكة الحديد" وهو يصارع الفقر والجوع والحرمان ليلتحق بركب التعليم. نرى أحياء "القاهرة" الفقيرة من خلال عيني طفل، يتمرد على "الكُتاب" وطريقة الحفظ والتلقين. يكاد والده أن يلقي به كصبي "عامل" في ورش السكك الحديدية، فتتدخل أيدي العناية الإلهية، لتمنحه فرصة أخيرة للتعليم في مدرسة أهلية، يصرف عليها "وقف خيرى". يبدو مشوار تعليم "رؤوف عباس"، وكأنه مكابدة لا تنتهي. صراع ضد الفقر، وضد رغبة والده في أن يعمل منذ صغره ليساعده في ضمان معيشة عائلة من عشرة أفراد.

ثلاثة جنيهاً فقط، كانت هي "المعجزة" التي أدخلته الجامعة. ذهب إلى موظف مصري بسيط يسأله عن المساعدة في الحصول على عمل أو وظيفة. وعندما رأى "عبدالحكيم" أفندي الدرجات التي حصل عليها "رؤوف" في الثانوية العامة، أشفق عليه وأصر أن يقرضه ثلاثة جنيهاً هي رسوم أوراق مكتب التنسيق للدخول إلى الجامعة، لولا تلك الجنيهاً الثلاثة لفقدنا مؤرخاً قديراً وعالمياً فذاً، تفتخر به الجامعات العربية. يروي "رؤوف عباس" الوقائع التي شهدتها بالأسماء كاملة غير منقوصة. وكأن مهنته كمؤرخ قد غلبت عليه، فكان حريصاً على أن يروي الحقائق كاملة. يكشف بجرأة غير مسبوقه كيف تغلغت "الروح الطائفية" في نخاع أجهزة نظام الحكم المصري في عهد السادات وفي عهد من بعده. أسماء كاملة ووقائع مرصودة بدقة. يتحدث عن "الجامعة" من الداخل والأمراض التي أصابتها وأدت على تدهور مستوى التعليم فيها. كيف تحول الأساتذة إلى "طالبى الوزارة"، وكيف انحنت هامات أمام عائلة الرئيس السابق السادات وكيف ظل قلة من الأساتذة قابضين على الجمر، ينتصرون لقيم العلم والجامعة؟. عشرات الأسرار والقصص والوقائع يكتبها بأسلوب رانع بديع وبنفس حكاء مبدع.

كشفت كتاب "مشيناها خطي" عن قدرة روائية كبيرة داخل رؤوف عباس. عينان طازجتان تلتقطان التفاصيل وعقل يبرز الدلالات الدرامية للحوادث. لذا أحدث الكتاب دويماً غير مسبوق في الحياة الثقافية المصرية. كان -رحمة الله عليه- يبتسم بمرارة قانلاً "طيلة أربعين عاماً كتبت العشرات من الكتب وغيرها من الدراسات الجادة التي أحدثت انقلاباً معرفياً في علم التاريخ، ويأتي "كتاب" لم يأخذ مني شهراً واحداً في كتابته ويحدث كل هذه الضجة؟" كان الناس يستوقفون "رؤوف عباس" في الشارع والدكاكين، بعد أن تعرفوا عليه

بصورته التي تصدرت الغلاف، ليثوه حباً و عطاءً واحتراماً وإكباراً. كانت "سيرته الذاتية" التي خطها بعد أن بلغ الخامسة والستين بمثابة "ضمير" لأمة تعاني ويلات الاستبداد والفساد.

تحدث رؤوف في سيرته الذاتية عن "مصر"، ولكن من خلال حياته ومشواره الصعب. لم ينتكر لأصوله الفقيرة ولا لطبقته الاجتماعية، بل كان منحازاً لكل فقراء بلده ووطنه. إنه ابن عامل "السكة الحديد" الذي أصبح مؤرخاً للشعب.. مؤرخاً للعمال والفلاحين والطبقة الوسطى.. مؤسساً للتاريخ الاجتماعي وناظراً لمدرسة "تاريخ الشعوب" وليس "تاريخ الزعماء فقط" في عالمنا العربي. كان عالماً ومثقفاً فذاً، لأن بداخله كان هناك إنسان جميل.

http://www.alwaqt.com/blog_art.php?baid=7382